

مُورافيا وفلسفة «السَّام»

بقلم نيقولا بيارومونت

سام بطل « السَّام » فهو ، اذا شئنا ، اللامبالاة التي تنبسط فتشمل الواقع كله ، الاشياء واحدا واحدا ، والاشياء مجموعة ، ابتداء من الشيء الاشد استغراقا ، وهو الذات ، وانتهاء بالشيء الاشد تجريدا والاكثر وجودا في كل مكان ، وهو العالم الذي يفرض فيه ان تنظم الاشياء والمخاوقات ويوضح بعضها بعضا ، ولكنها على العكس لاتفعل الا ان تعكس عبثية واستحالة تكاثرتين الى مالا نهاية .

لقد تحدثنا عن « الحالة النفسية » ، ولكن السام اذا فهم على هذا النحو لا يمكن ان يكون حالة نفسية ، كما يقال عن النفور او عن المرح بانهما حالتان نفسيتان . وبالفعل ، فان السام المورافي انما يعرف بانه غياب كل حالة نفسية خاصة وانتفاؤها ، وهو يستبعد كذلك الحزن والفرح ، بل هو يبالغ ، كما يشير المؤلف ، الى ان يقتل ذلك السام الاخر الذي هو الشعور بزمن فارغ لا لون له ، وغياب التسلية والفرص المحركة . ومن جهة اخرى يمكن التحدث عن الحالة النفسية بصدد مزاج ما او وضع روحي مرتبطين بسبب او بدافع عرضيين ، ومعتبرين بالتالي عابرين من الفرد الى اللحظة نفسها التي يعاني منها « او يستمتع بها » او يمكن التحدث في اخر المطاف عن زجاج غير معمل ، ومن

لنستمع الى مورافيا يتحدث في « السَّام » (1) ، عن السام ، هذه الموضوعة الثابتة في آثاره ، والتي تبدو هنا للمرة الاولى بطريقه صريحة جليته :

« ... السام بالنسبة لي ، ليس عكس التسلية ، بل يمكنني القول انه في بعض مظاهره ، يشبه التسليه بما يخلفه من شرود ونسيان ينتميان طبعاً الى فئة خاصة جدا . ان السام في نظري هو حقا نوع من النقص او عدم التلاؤم او غياب حس الواقع . واعمد هنا الى تشبيهه فاقول . ان حس الواقع ، حين يتملكني السام ، يحدث لدي ما يحدثه بالنسبة للنائم غطاء قصير اتر مما ينبغي ، في ليلة شتوية : فاذا سحبه على قدميه ، اصيب بالبرد في صدره ، واذا رفعه الى صدره ، اصيب بالبرد في قدميه ، فهو لهذا لا يستطيع ابدا ان ينام قرير العين ، او هذا التشبيه الاخر : ان سامي يشبه انقطاع المجرى الكهربائي في بيت : فكل شيء منير واضح ، في لحظة من اللحظات ، هنا الكراسي وهناك الارائك ، وهناك الخزائن والمناضد واللوحات والبسط والطنافس والنوافذ والابواب ، وفي اللحظة التالية لا يكون ثمة بعد الاظلام وفراغ ، او هذا التشبيه الثالث : ان بالامكان تعريف سامي بانه مرض للاشياء ، او عبارة عن ذبول او فقدان للحرية مفاجئين تقريبا ، فالامر كانما هو رؤية زهرة تتحول في بضع لحظات ، من التفتح الى الذبول الى التفتت ...

« ... كنت في نظر نفسي شبيها بشخص لا يحتمل لاسباب مختلفة ، يجده مسافر في حافلته عند بدء رحلته طويلة ، والحافلة هي من تلك الحافلات المصنوعة على الطراز القديم ، من غير اتصال مع الحافلات الاخرى ، والمفروض في القطار الا يتوقف قبل نهاية الرحلة ، وعلى هذا فان المسافر مضطر الى البقاء مع رفيقه الكريه حتى اخر المطاف ...

« ... وكان المظهر الرئيسي للسام هو العجز العملي عن ان اظل تجاه نفسي التي هي من جهة اخرى الشخص الوحيد في العالم الذي لم اكن استطيع بحال من الاحوال ان اتحلل منه . »

اننا نتعرف هنا الى الحالة النفسية التي كانت تسمى ، في اولى روايات مورافيا ، باللامبالاة . ولكن اللامبالاة كانت تخص بالاحرى الاخرين ، لا الواقع بصورة عامة . كانت هي العجز ، لدى احد الشبان ، عن ان يشارك الاخرين العواطف والمشاعر والرغبات التي كانت تمنحهم اسبابا للعمل ان لم تكن مشروعة ومقبولة ، فهي على الاقل واضحة ومباشرة ، وكان هذا العجز يرافق حزنا كبيرا وشغورا بالذنب مرهقا بقدر ماهو مجرد من اي سبب ظاهر ، اما

(1) صدرت اخيرا عن دار الاداب مترجمة الى العربية في سلسلة

« الجوائز العالمية »



ثم ، اكثر تغيرا وعرضية ، وبالإضافة الى ذلك ، فان الحالة النفسية ، لكونها بالاساس عابرة ، تبدو كواقع ذاتي محض ، تشويهه للآنا ، لا للعالم الواقعي .

اما السام المورافي ، فان له ، على عكس ذلك ، خاصية ان يكون وضعا داخليا ، مستمرا وغير معال في الوقت نفسه ، ليس مقصورا على ان يهدم كل امكانيه باستشعار حالات نفسية ، بل هو يعدي العالم الخارجي ، ويجعله مجدبا وناقصا ، لا بسبب هذه القالة او تلك ، بل ككتلة ، وبصورة نهائية ، اذا صح التعبير .

وهنا يتم الانقال من « الفيزيك » « ودن السيكلوجية الطبيعية » الى « الميتافيزيك » ، اي الى حقل تحل فيه محل مراقبة الوقائع المزعومة قضية انفصام العلاقة بين الفرد والاشياء ، حقل يحل فيه محل صورة العالم الذي هو مكان ومصدر الاعراض التي تتفاوت حقا وأما وتفردا ، الاحساس بثقل العالم نفسه وكثافته وبثقل وجودنا بالذات في قلب هذا العالم . ان العالم واحداثه تظهر كتجربة « لا - معنى » مكرورة ، ويبدو وجودنا بالذات كواقع جامد اصم تعذب نفسنا لادراكه وفهمه ، وربما لم يكن هناك ، في آخر المطاف ، ما يفهم ، ولكننا لانستطيع الامتناع مع ذلك عن تعذيب انفسنا .

وسام مورافيا هو وضع التعذيب هذا ، تعذيب لاشك في انه لاجدوى منه ، ولكنه مع ذلك ضار وكشاف في ضراوته . انه وضع يلزم الفكر كله ، لا الحساسية وحدها ، ولا ملكة المحاكمة بكل تأكيد ، لان الحساسية اذا لم تتح ادراك نقص العالم بالنسبة للوعي ، ونقص الوعي بالنسبة للعالم ، فان العقل كذلك يفقد هذه القدرة ، هو السذي لا يعطينا الا النظام المنطقي للاحداث . ولما لم يكن السام المورافي مجرد حالة نفسية ، ولا عمل محاكمة عقلية ، ولا نتيجة خاصة لسبب خاص ، فينبغي ان نتفق على انه وضع للكائن مرتبط بوضع ما للعالم .

وضع الكائن : نقصد بذلك وضعا يكون فيه الشخص مسكونا كايا وبصورة دائمة بشعور ما ، وبفكرة طاغية ما ، ومن جهة اخرى ، بسبب انه مغمور كايا ومملوك لهذا الشعور ، فانه يحول الى الا يصبح الا محض وعي فارغ الذات ، وهو على نحو ما قسر للوعي ، وعي لا جدوى منه مادام لا يستطيع شيئا ضد الاحساس المهووس الذي يشغله والذي يحيل الوجود المحسوس الى آليات . وهذه الحقيقة التي تنطبق على شعور الحواس ، او على رغبة التملك ، اشد انطباقا على شعور ساجي مهووس كالسام الذي لا تكون اعراض الوجود بالنسبة اليه الا الدليل المتكرر للاجدوى نفسها ، والا انتفاء المعنى .

في الدراسة التي كتبها هايدغر بعنوان « ما هي الميتافيزيقا ؟ » ، يشرح المؤلف في معرض حديثه عن السام بالذات فكرة تنطبق انطباقا فريدا على هذا الوضع . فالتجربة البدائية الاولى التي نحفظها عن العالم ، هي في رأي هايدغر ، هذه التفاهة اليومية التي تبدو فيها الاشياء حاضرة جنباً الى جنب ، الواحد خلف الآخر ، وكلها معا ، من غير ان تقدم لنا اي تبرير عام عن حضورها . والعالم الذي هو موضوع هذه التجربة يبدو واضحا بينما هو كثيف ، ويبدو وكأنه يشكل كلا ، بينما هو لا يفعل الا ان

يقدم لنا مجموعة من الاشياء والاحداث ، ويبدو وكأن له معنى بينما هو يردنا ببلادة الى نفسه والى الاشياء التي تؤلفه . ذلك هو السام الميتافيزيقي الذي يقرب ، على حد قول هايدغر ، بين البشر والاشياء ، يقرب بيننا بصحبة الاخرين وبين الاشياء في لا تمييز يحمل على الدعر . وتحت هذا الشكل يتسدى لنا الكائن اول ما يتسدى ، أي من حيث الوجود وضع كلي لا ينحل على صعيد اليومي والناجز مسبقا وانما يستوجب تدخل الحرية الانسانية .

واذا اعطينا فكرة هايدغر قيمة الاستعارة او الاسطورة اهكننا القول على نحو ما بان آثار مورافيا كلها تولد وتنمو ابتداء من تقرير قبول السام كأمر واقع : فهي تقف عند السام وتمتنع على أي تكشف لاحق ، ولهذا فهي تقتصر على القول وعلى التردد بان عالم اليومي الرتيب ، العالم الطبيعي او العادي الذي يكتفي به معظم الناس ، معتبرين اياه الحقيقة الواقعية القصوى ، هو بكل تأكيد الواقع الوحيد ، ونحن لانعرف واقعا غيره ، ولكنه يضيف انه عالم مضجر ، عالم ميت بكل ما في الكلمة من معنى ، اي انه عالم بعيد عن ان يضعك في اتصال مع واقع الاشياء ، بل هو يمنعك من ان يكون لك أي صلة بها .

وروايات مورافيا وقصصه ليست حكايات ذات نزعة طبيعية ، حتى ولا واقعية ، وانما هي قصص هذا العالم الميت : نماذج مكرورة عن واقع لا هوادة فيه لعالم ميت ، عالم يكون فيه الوعي مستيقظا وحادا في وقت واحد . والواقعية المورافية ، بهذا المعنى ، اخلاقية محض ، فهي لانصف الاشياء ، والاحداث ، وانما تصف تأثيرها السلبي على الوعي والشعور ، او بالاحرى سلبيتها العنيدة ، والطريقة التي يرفضها بها الوعي ويبعدها بشدة زينوئية . ذلك انه اذا كان العالم ميتا ، واذا كانت الاعمال والاشياء التي تؤلفه جامدة ، فان الوعي الذي يصفها هو ، بالمقابل ، حي وذكي : انه يكابدها من غير ان يقبلها ، ويؤكد ، وهو يصفها طاقته الذاتية وصلابته في وقت واحد . ومن اجل هذا ، فان قصص مورافيا - وهي وقائع يومية لوضع سام ولا معنى - حين تكون ناجحة « وهي ناجحة لاسيما وانها تنزع اكثر فاكثر لان تكون نموذجية ، وانها بدلا من ان تضيع في حبكة معقدة ، تتركز على واقعة بسيطة » فانها ليست متشائمة وليست محطمة : بل على العكس ، هي اقرب لان تكون مشجعة وعفوية ، بالرغم من طبيعتها الكريهة او المغيظة . انها مقوية للوعي والروح ، لا للحواس ، لانها مصنوعة لكي تفهم ، لا لكي تتذوق . ولكونها تقرأ كقصص طبيعية او واقعية « ومن سوء الحظ ان المؤلف يعطيها غالبا هذا الشكل » فانها بالضرورة تثير الكره والغيظ ، والواقع انها مكتوبة بنية قاسية لان تضرب وتصفع جمودا خلقيا ما ، وشهوانية حسية ما ، وعاطفية ما ، وجمالية ما ، ونضيف انها تقصد الى مناقضة نزعة تقليدية ايطالية تميز بها ادب منيسط ، متاون ، هزين .

وتقتصر واقعية مورافيا على اعطائنا صورة الاصطدام المتكرر الالهوس بين الوعي وتفاهة الوقائع . انه اصطدام رتيب ، دقيق في ذاته ، بلا تطهير ، والحق ان ما يصوره مورافيا بدقة وبلا ضجر ، انما هو قصور الواقع « الغطاء القصير اكثر مما ينبغي » ولذلك نراه يقدم لنا منذ البدء ، كل مرة ، وبتحيز لا سبيل الى تفاديه ، واقع الوعي ، دودة الوعي القارضة المعذبة ، القاسية قسوة لا هوادة فيها ، ولهذا كان كل كتاب من كتبه قبل كل شيء تجربة حقيقية ، وليس اسطورة خرافية . صحيح ان هناك عشرات من الكتابات

يدي لانزع السيكرة من فمي ، ولكني بدل ذلك اومات لها
ايماء واضحة ان تعود ادراجها . « وعلى هذا النحو ،
وفعت الاحداث ، وهكذا يبق ان يجد الانسان نفسه مأخوذاً
في دوامة الواقع ، على مايعني المؤلف .

من هذه الحركة اللاارادية ، المجانية والضرورية معا ،
تنبثق قصة ، ليست هي قصة حب وغرام ، وانما هي قصة
ارادة للمعرفة وللملك محرومة ، تشكل نواة الحكاية . ان
العلاقة بين الرسام والفتاة عارية ، آلية ، نظيفة كعظمة ، بل
حتى كهكل عظمي ، سلسه من الافعال الجسدية ذات آليه
مسعوره ومثاوجه ، ولم يسبق لكاتب ان صور العري والشهوة
واطفاء الشهوة بمثل ما صورها به مورافيا من انقضاء
للانبساط ، ومن موضوعيه عديمة الاحساس ، ذلك ان
مورافيا لا يصف الاجساد ولا حرثاتها . وانما يصور طبيعتها
القائمة على البديهية واللاواقع في وقت واحد : انه
يصور الرفض الذي تواجهه به هذه البديهية واللاواقع
ملكه الفهم ، ويصور آليه الاجسام وقدرتها
العمياء . وفي فراغ السام ، يقدم انتصار الحب الجسدي
على كل دافع حيوي اخر في عنف مدمر شبيه بالعنف الذي
نجده في نعوش « بيز » مطالباً بانتصار الموت والتحلل على
الانانية والمسرات الارضية :

« لقد كان « اي الحب الجسدي » في البدء شيئاً
طبيعياً جدا بما ظهر لي من ان الطبيعة كانت تتجاوز نفسها
فيه وتصبح انسانية ، بل اكثر من انسانية . اما الان فيلفت
نظري افتقاره الى الطبيعة ، وخصيصته كعمل مخالف
للطبيعة على نحو ما ، اي انه اصطناعي ولا معقول . ان السير
والجلوس والتمدد والضمود والهبوط ، جميع هذه الالوان
من العمل الجسدي كانت تبدو لي ذات ضرورة ، فهي اذن
طبيعية ، اما الافتتان فقد كان يبدو لي على العكس قسراً
شاذاً لم يصنع الجسم الانساني من اجله ولا يستطيع ان
يعتاده من غير جهد وتعب . ولنت افكر بان كل شيء يمكن
ان يعمل بيسر ، في انسجام ولذة . كل شيء ماعدا الافتتان .
ان بنية الجهازين التناسليين بالذات ، جهاز المرأة الصعب
المنال ، وجهاز الرجل العاجز ، كالذراع او كالساق ، عن
التوجه نحو غايته بطريقة ذاتية ، والمحتاج على العكس الى
مساعدة الجسم كله ، ان بنية هذين الجهازين كانت تبدو
لي وهي تدل على لا معقولة الفعل الجنسي . . . »

ان مورافيا لا يقول ان هذا هو الحب ، وانما يقول ان
اظهار الحب على غير هذا النحو ، في الوضع الذي نحن
فيه ، يعني الكذب ، ومن جهة اخرى ، فان الجنس ، على
كونه مجرداً كل التجرد من اية ذرة روحية ، يظل مع ذلك
حقيقة ، يظل المدخل الوحيد الى الطبيعة الذي مانزال
نحتفظ به ، ان عبارة « لنكن المادة » التي ينطق بها بطل
فلوبير ، القديس انطوان ، تعبر عن الشكل الوحيد للعذاب
الصوفي الذي هو جدير بالانسان المعاصر ، ان الجحيم
الحقيقي ليس هنا ، وانما هو في « اللاضروري » ، في كل
ما يهربنا من نفوسنا بان يخفي عنا واقع اننا نعيش في عالم
ميت اخلاقياً . وهذا الواقع يصوره مورافيا في ضراوة
لايضاهيه فيها احد ، في اجزاء الرواية التي تربنا العلاقات
بين البطل وأمه . هناك تصوير للذخ والمال وفراغ الاحاديث
وصمم الروح لدى كائن يحب التملك وشراهة التملك في
هوس مميت : الرضى الجامد عن الذات . فمن الامكنة التي
تشبه مقصورة الام ينتشر روح السأم على العالم .

ترجمة « الاداب »

القادرين على ان يصوروا المظاهر الحساسة تصويراً افضل
واجمل واوضح من تصوير مورافيا لها ، ولكن ليس ثمة
من هو اقدر منه ولا ابرع على التقاط اللحظات التي تمزق
فيها الحقيقة الواقعة ضباب النزعات والتمنيات ، فتنتفض
بالحياة وتتكشف عن جوهرها الذاتي الساحق . انها تلك
اللحظات التي نشعر فيها بثقة انسان مضى بتجربته
الخاصة حتى نهايتها ، انسان يتحدث فيمضي باستقامة
نحو الجوهر . اذ ذلك ينجح مورافيا على نحو ما في
تجسيد جوهر عذابه بالذات ، فاذا هو يفجر من حركة ماء
من تماس جسدي ، من طرفة عين ، من جزء صفيق من
مادة ما ، شعور استياء او ضيق ، او قلق جذري . ومن
هنا تولد القصة ، لا من « فرحة السر » ، والى هنا تريد
ان تبلغ ، لا الى خاتمة واقعة ما ، ان الحكمة هي « الرباط
الموضوعي » لهذه الحالة النفسية الدائمة ، انها منبثقة من
ارادة المؤلف لان يقولها وهي مرتبطة بقريئة واقع يومي
معتبر « كمكان مشترك » للتجربة ، وليست منبثقة من
رغبة في تمثيل مجرى فعل واقعي في ديمومة زمن واقعي .
وفي هذا الوضع الاساسي الذي يصوره مورافيا
بلا انقطاع ، تبدو لي رواية « السام » مثالا رائعاً ، دقيقاً ،
قوياً وفعالاً بتجرده الخلفي والفني - ولعلها انجح آثار
مورافيا .

ان بطل الرواية رسام تجريدي يأخذه يوماً وحسي
حقيقي اثر محاولات كثيرة مخففة ، فينتفض على لوحه
يرسمها ويمزقها بضربات مديته . وبعد ذلك يشعر بانه
حر في ان يبدأ كل شيء من جديد ، انطلافاً من الصفر ، او
في ان يعترف بصراحة انه فاشل : « فاشل لا لاني لم اكن
احسن رسم لوحات تروى الاخرين ، ولكن لاني كنت اشعر
بان لوحاتي لم تكن تتيح لي ان اعبر عن رأبي ، اقصد انها
لم تكن تعطيني الوهم بانه كانت لي بالاشياء علاقة . »

هذا اذن رجل ازاء حقيقة كريمة الى ابعد حد ، ولكنها
تظل رغم كل شيء افضل من الوهم : فهو لكونه جيداً ازاء
صورة لنفسه « لا تحتمل لاسباب مختلفة » في عالم منحط ،
يستطيع ان يفعل او ينساق لفعل أي شيء . وذات يوم ،
فجأت منه حركة باتجاه فتاة صبية :

« واذ وصلت الى ماتحت بابي الزجاجي رأيتها ترفع
عينها نحوي ، ولكن من غير ان تبسّم هذه المرة . ورفعت

صدر حديثاً :

الطبعة الثانية من ديوان

قصائد عربيّة

للشاعر سليمان العيسى

دار الاداب - بيروت